(أثر الماء في لغة أهل الصحراء قراءة في رحلة كلمة الرواية إختيارا)

أ.د. عمار محمد يونس
جامعة كربلاء - كلية التربية للعلوم الإنسانية

تاريخ الاستلام :2025/1/18

الكلمة في أصلها بريئة ونحن من شَحنها بالمعنى؟ نعم نحن من شحنها بالمعنى فصارت تسعى إلينا بصورٍ شتى وتصدر عنا بصورٍ شتى، وكذا أمسينا كمن يدرك النتائج قبل التجربة!

الكلمة صوت حروفٍ اجتمعت مع غيرها شفاهية فتشكلت لغةً، والاخيرة شأنٌ من شؤون الأدراك، لذا فهي قاصرة طالما كانت دون لغة الكامل. واجتمعت تدوينا فرسمت سطورا ونصوصا تحمل غيثها فتلقيه في عقول تصحرت بفعل أهلها. ورغم أنها الضابط للفهم، إلا أنها كثيراً ما استخدمت بشكل مجاني و فوضوي من حيث الدلالة فأحدثت فوضى ذهنية أنتجت مفاهيماً مضطربةً، لذا فمن الضروري أن نعود بها نقيةً كما كانت قبل شحنها بالمعنى، لأن نقاءها من شوائبها يمكننا من الدخول إلى النصوص وفهم مرادها كي تنأى بعقولنا عن خطر اقتحام حلقات كثرت فيها المداخل وتعذرت منها المخارج. وكثيرا ما يفضي غياب الفهم الى نتائج عديدة ومنها: الى (الخوف) وهو المنفذ الى (الخرافات)، أو الى (فقدان الشجاعة) الذي يصنع (التقديس)، أو الى (التدجين) الذي يجعل من التجربة الملوثة للعقول (مقبولة في عقول معتنقيها)، والنتيجة هي أن أتفه الناس أو أعجزهم يمسي حكيماً! وتتصدر الذات الجهولة وملوثاتها العقلية المشهد الاجتماعي فتكون بين صورتين، أما ناصح اخلاقي وأما حاكم يمتلك الحق في ادارة شؤون الآخرين، وكأننا من بيئةٍ لا تعرف سوى الجفاف؟

تتغير المفاهيم لتكون أكثر قسوةً من المنتج نفسه وتتعايش المشوهات مع العشوائيات العقلية، وترى الناس تهذي بما يؤذي وتهرف بما لا تعرف. فهم خوارج إذا ذكرت الأعلام ومرجئة إذا ذكرت الحُكام! وكأنهم يبتغون الأمر على أمزجتهم ومقاساتهم لا كما هو الأمر! فكم من جهلٍ عدوه علما؟ وما يزيد الأمر سوءا هو غياب الكتاب المقروء وسيادة الكتاب المرئي، فيزداد الجهل وتزداد معه الجرأة، خاصةً وأنهم يميلون بطبعهم الى التسطيح وكل ما هو مسطح غير مجهدٍ للذهنِ ، وبالتالي يواجه المعنيون الكثير من التساؤلات المعلقة على صفحات العقل تنتظر الإجابة عنها ومن بينها، هل عقلنا النص بعقولٍ متحجرةٍ؟ وهل أن الكلمة طائشة ومن الممكن تداولها على غير مقاييسها؟ وهل يمكننا معالجة تجاعيد الزمن وحفرياته في الذهن الإنساني؟

إن التفكير قائم على اللغة وإذا ما اهتزت وتخلخلت فإن ناتجها سيكون مشوهاً وستعم فوضى الأفكار وذلك لاختلالها كساند، لذا لا ينبغي أن نقف أمام ظواهر الألفاظ، لأنها أما أن تكون ذات دلالة لغوية وأما أن تكون ذات دلالة اصطلاحية. وقد تكمن المعضلةُ في التفسير لا في النص فنعتقد واهمين بأننا وضعنا أصابعنا على الداء! و لدرء تلكم الموهنات ينبغي أن نضع المراد فهمه على طاولة البحث لا أن نتلو منه نُتفاً كما نحب ونرشقهُ من هنا وهناك بعبارات أو بأخرى، خاصة وأن معظم المدونات تم فرضها نيابة عن مشاعر الشعوب. فكم من إبدال أنتجته الهجائن بما يخدم منافعها؟ وكم أغتصب النص الموازي الدلالات والمعاني لصالحه على حساب ما جادت به اللغة؟

حان وقت مغادرة فكرة استحالة المواجهة والاكتفاء بالمحافظة على الذات، وان بناء فكرة يستوجب بناء مرتكزاتها المستقبلية، وبدورها تستوجب طروحات لا تتمتع بشعبية الحاضر فقط بل تحمل مصداق المستقبل ايضا. فالعلاقة طردية بين الزمن ومدخلات الثقافة الهجينة التي تحمل معاول هدم براءة الكلمة، فكلما مر الزمان ومضى بعيداً كلما زادت المدخلات وكلما زادت المدخلات كثرت الحكايات وكلما كثرت الحكايات غصت العقول بسقيم الأفكار، حتى صار العقل الهجين قديساً أبلهاً ورغم ذلك تجد هناك من يدعم كل هفواته وسقطاته. مما تقدم صارت أسباب رحلة الكلمة لزاماً على ذوي الألباب لعلهم يعقلون.

ورحلـة الكلمـة في اللغـة العربيـة دلالـة عن حيويتـها ومرونتـها دون غيرها من اللغات، وكلمـة "رواية" مثل غيرها من الكلمـات رحلت وتطورت منذ عصـر طفولتها مروراً بمرحلة شبابها وصـولاً إلى عصـر بلوغها اللغوي، فهناك كلمـات مرت بأطوار لغوية مختلفـة مـرتحلـة مـن الـمادي الـملموس الـى الـمعنوي الـمحسوس ومـن ثـم اسـتقرت بشكلـها الاصـطلاحي المتداول للدلالة على معنى آخر، وكلمة "رواية" هي مصدر من الفعل "روى" والذي يعني الري والشبع، واسم الفاعل منها "راوٍ" أي "ناقل الماء"، ومنها يمكن إدراك أهمية الماء في لغة أهل الصحراء.

كانت كلمة "رواية" في طورها المادي الملموس يراد بها "النقل"، لارتباطها بنقل الماء من البئر، لذا أطلقت على الوعاء "الحامل للماء"، والهاء في آخرها للمبالغة في كثرة الماء في الوعاء، وكذلك أطلقت "رواية" على الناقة أو البعير "الناقل للماء"، وهذا ماعُرفت به العربية في إطلاقها اللفظ على الشيء لقربه منها، وهكذا صارت كلمة "رواية" ذات دلالة مادية ملموسة في هذا الطور اللغوي "الحمل الماء ونقله"، فأطلقت على الجماد بوصفه الوعاء "الحامل للماء"، وعلى الحيوان بوصفه "الناقل للماء" أيضا،وكلاهما يراد به "حمل الماء ونقله". وهنا صار لزاماً على الباحث أن يدرك كيفية التعامل مع كلمة مادية ملموسة ومن غير الممكن توظيفها في غير محلها.

والعربية بوصفها لغةً امتازت بقدرتها على تجريد الكلمة لغوياً بغية الابتعاد بها عن دلالتها الملموسة والوصول بهـا إلى دلالـتها المحسوسة، فكمـا أطـلقت "رواية" للـدلالـة على "الحمـل والنقـل" في مرحلتها المادية الملموسة، استعارت اسم الفاعل منها "راوٍ" لتطلقه على "حامل الخبر والشعر" في مرحلتها المحسوسـة، وهكذا انتقلـت من مـاديتهـا الملموسـة إلى معنويتهـا المحسوسـة إنـتقـالاً مجازياً إذا جاز التعبير، فصار اسم الفاعل "راوٍ" للدلالة مجازاً عن "ناقل ومؤدي الخبر أو الشعر"، ومما تقدم جاز للباحث أن يوظفها كما هي في طورها المعنوي المحسوس، ومن الممكن التعاطي معها كما كانت في طورها المادي الملموس.

وبعد الإسلام تم التعامل مع "راوٍ" كما هي في مرحلتها الثانية المحسوسة للدلالة عن "حامل الحديث والشعر" حتى قيل عنه "روى الحديث والشعر رواية و ترواه".وهنا صار حامل الحديث ومؤديه وحامل الشعر ومؤديه "راوياً"، و"الرواية" ليست سوى "طريقة حمل ونقل وأداء" وبهذا أخذت هذه اللفظـة "رواية" دلالتهـا الاصـطلاحية بشرطهـا الأهـم وهو "تمام الحفظ"، حتى قيل "ورويته الحديث تروية، أي حملته على روايته وأرويته" أيضا، وتقول أنشد القصيدة ياهذا ولا تقل له أروها ، إلا أن تأمره بروايتها أي استظهارها

وما ان وصلت الكلمة الى مستقرها الاصطلاحي حتى صارت دالةً عن علوم الحديث والتاريخ والشعر مقتصرة غايتها على تلك العلوم، ومن غير الصحيح التعاطي مع الاصطلاح بشكل مغاير وتوظيفه بما لا يتوافق و دلالته الاصطلاحية.

استقرت كلمة "رواية" للدلالة عن العلم وتمام الحفظ في معناها الاصطلاحي، وارتقت برقي اللغة العربية، فرحلت كلمة "رواية" من طورها المادي الملموس "نقل الماء وحمله" إلى طورها المعنوي المحسوس "راوٍ" و وظفته للدلالة عن "حامل الخبر والشعر" لتستقر في دلالتها الاصطلاحية و بصورتها النهائية لتعني "حمل العلم و أداؤه"، بوصفه ناقلاً للحديث النبوي الشريف ومؤديه وفق شروطه "حملاً وعِلماً واداءً" لترسم صورة مطابقة وأهمية الماء في حل أهل الصحراء وترحالهم.

المصادر :

- الإسلام والعنف ، الدكتور خالص جلبي وآخرون ، دار الكرمل للنشر والتوزيع ، الأردن ، 2005م .
- مفهوم الدولة في الاجتماع العراقي ، الدكتور علي السعيدي ، نون للطباعة ، ط2 ، بغداد ، 2017م .
- الأساطير المؤسسة ، الدكتور صلاح جواد شُبر ، دار المحجة البيضاء ، بيروت ، 2016م .
- سيسيولوجيا الدين 1- مقاربات كلاسيكية ، دانيال هيرفيو ليجيه وآخرون ، ترجمة: د. يوسف الصديق، هيئة البحرين للثقافة والآثار ، المنامة ، 2018م .

- مقال في تحليل النص التاريخي ، الدكتور عمار محمد يونس ، دار الصادق ، الحلة ، 2023م .
- لسان العرب، ابن منظور الأفريقي، باب الراء مادة " روى"، ط دار المعارف، القاهرة.
- أساس البلاغة، الزمخشري، مادة "روى"، ط دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م .
- مصادر الشعر الجاهلي، الدكتور ناصر الدين الأسد، ط دار المعارف، القاهرة، 1956م
- منهج النقد التاريخي، الدكتور عثمان موافي، ط المؤسسة الثقافية الجامعية، الإسكندرية، 1976م .
- الكتابة التاريخية والمعرفة التاريخية، الدكتور عزيز العظمة،ط دار الطليعة، بيروت،1983م.